

صورة الآخر في رواية "يوم غائم في البر الغربي" لـ "أحمد المنسي قنديل"
A picture of the other in the novel "Acloud day in the western land"
by " ahmed almansi qandil"

د. أحلام الواج

جامعة يحيى فارس بالمدينة (الجزائر)، ahlemlouadj1993@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/03/30

تاريخ القبول: 2022/03/19

تاريخ الإرسال: 2021/04/26

الملخص: تسعى هذه الدراسة إلى الكشف عن صورة الآخر في الرواية العربية الحديثة والمعاصرة، إذ شغلت ثنائية الأنا والآخر اهتمام العديد من النقاد الباحثين وأفردوا لها فصولاً في كتاباتهم النقدية محاولين الكشف عن العوامل الرئيسة التي أسهمت في تشكيل هاتين الثنائيتين، فمن خلال ثنائية الشرق والغرب ظهرت ثنائية الأنا والآخر. فالأنا تنظر إلى الآخر نظرة احتقار وتجعله أدنى مرتبة منها، وهذا ما جسده نظرة الغرب للشرق والمستعمر للمستعمر، وهذا ما عالجته "محمد المنسي قنديل" في روايته "يوم غائم في البر الغربي" إذ تطرق إلى مسألة الصراع بين الأنا والآخر أو بين الشرق والغرب، إذ يبدو الشرقي في هذه الرواية بدايماً وهمجياً يفتقر لأدنى شروط الحضارة وأيسر المؤهلات التي تمكنه من التعايش مع الذات الإنجليزية .

الكلمات المفتاح: علم الصورة، الأنا، الآخر، الأنماط الجاهزة.

Abstract : This study seeks to reveal the image of the other in the modern and contemporary Arab novel, as the duality of the ego and the other occupied the interest of many research critics and devoted chapters to it in their critical writings, trying to reveal the main factors that contributed to the formation of these two dichotomies. And the other. The ego looks at the other with a look of contempt and puts it inferior to it, and this is what was embodied by the West's view of the East and the colonizer of the colonizer, and this is what Muhammad al-Mansi Qandil dealt with in his novel "A Cloudy Day on the Western Land," as he touched upon the issue of the conflict between the ego and the other or between East and West. Al-Sharqi appears in this novel, primitive and barbaric, lacking the

lowest conditions of civilization and the simplest qualifications that enable him to coexist with the English self.

Keywords:

The science of the image, the ego, the other, the ready-made patterns.

1. مقدمة:

للصورة أهمية كبرى في الخطاب الأدبي إذ أنّ كل عمل إبداعي يحمل في طياته العديد من الصور التي تسعى إلى غرس مجموعة من الأفكار في ذهن المتلقي وجعله يسلم بصحتها، وتعدّ دراسة العلاقة القائمة بين الشرق والغرب من أهم مجالات الدراسات الأدبية المقارنة التي شاعت في السنوات الأخيرة، نظرا لما تحمله من أهمية في محاولة تجسيد العلاقات بين الشعوب والثقافات المتعدّدة، من خلال تصحيح النظرة الزائفة حول الشرق بفعل الاستشراق الذي سلبه هويته وكيّنوته وجعله في أدنى المراتب، ورسم العديد من الصور حوله والتي كانت تشتغل بطريقة ضمنية جعلت الفكر الشرقي يسلم بها ويتبناها. من هنا نطرح الإشكالية الآتية: كيف تجسّدت صورة الآخر في رواية "يوم غائم في البر الغربي"؟ ويتفرع عنها مجموعة من الأسئلة التي سنحاول الإجابة عنها في ثنايا هذا البحث: ما مفهوم الصورة؟ ماهي مجالاتها؟ وكيف تجسّدت في النصوص الأدبية والروائية على وجه الخصوص؟ وماهي أهم الأسباب التي جعلت الغرب يتفوق على الشرق في مختلف المجالات؟ وهل استطاع الشرق أن يعيد الاعتبار لنفسه من خلال تخلصه من فكرة التبعية للآخر؟ من هنا نشير إلى مجموعة من الفرضيات التي ستكون بمثابة الإجابة عن الإشكالية المطروحة: إنّ تسليم الشرق بكل الأفكار والطروحات الصادرة من الغرب جعلته يرث النظرة الدونية فترة طويلة من الزمن، كما أنّ غياب الوعي النقدي جعل تلك المقولات والأنماط الجاهزة تنتشر على نطاق أوسع من العالم، إضافة إلى أنّ فكرة المركزية الغربية تفرض علاقة التبعية بين الأنا والآخر إذ يجد الآخر نفسه ملزما بأن يعيش تحت لواء العبودية.

يهدف هذا البحث إلى الكشف عن صورة الآخر والكشف عن تجلياتها في الخطاب الروائي العربي، كما يسعى إلى الإبانة عن الآليات التي تشكل العلاقة الجدلية بين كل من الأنا والآخر أو الشرق والغرب، وللإجابة عن التساؤلات اعتمدنا على المنهج الوصفي التحليلي النقدي لأنّ طبيعة الموضوع تستدعي هذه المجموعة من المناهج.

2. علم الصورة مفهومه، ومجالاته

1.2 مفهوم علم الصورة

يندرج علم الصورة ضمن أهم مباحث الأدب المقارن، وقد لقي عناية بالغة لدى المقارنين، ويمكن تحديد فترة ظهوره إلى النصف الثاني من القرن التاسع عشر، من هنا يرى "محمد غنيمي هلال" أن علم الصورة «أحدث ميدان من ميادين البحث في الأدب المقارن، لا ترجع أقدم البحوث فيه إلى أكثر من نحو ثلاثين عاما، ولكنه -مع حداثة نشأته- غني بالبحوث التي تشير بأنه سيكون من أوسع ميادين الأدب المقارن وأكثرها روادا في المستقبل»¹. ومن المتعارف عليه أن كل الشعوب مولعة برسم صور عن غيرها وهذا ما يتجسد في مختلف مجالات الحياة، وعليه فإن: «دراسة الصورة لم تقتصر على الأدب، بل شملت حقولا مختلفة أيضا، لهذا عانت مثل أية دراسة في مجال العلوم الإنسانية من بعض الانحرافات، فقد ركزت بعض الدراسات اهتمامها على جماليات النص الأدبية دون الانتباه للتحليل الثقافي التاريخي، في حين وجدنا دراسات أخرى تسلط الضوء على الجوانب التاريخية والثقافية، وتهمل الجانب الجمالي للأدب، حتى وجدنا بعض هذه الدراسات قد تحولت إلى إحصاءات اختزالية لصورة الأجنبي، فسيطرت عليها الآلية والسرعة، مما أبعدها عن روح الفن وعمق المعرفة العلمية»². فعلم الصورة ينتمي إلى تخصصات عديدة من بينها نجد علم النفس، وعلم الاجتماع، والأدب، وغيرها. وكل تخصص له مدونة يأخذ منها، فمثلا في الأدب يأخذ من التصوص الأدبية، إذ توجد العديد من الروايات التي عالجت هذه المسألة من بينها: نجد صورة الجزائر في كتابات ألبير كامو، وصورة فرنسا في الرواية الجزائرية، وفي السياسة نجد صورة العرب في السياسة الأجنبية، وهكذا.

أما فيما يتعلق الأمر بالصورة الأدبية، فيمكن القول: «إنها» ما ترسمه مخيلة الأديب باستخدام اللفظ كما ترسمه ريشة الفنان وتكون متأثرة بحالة الأديب إما البهيجة أو الكئيبة»³. فهي تعكس جزءا هاما من مخيلة الأديب من خلال الأفكار التي يطرحها، من هنا فإن دراسة صورة الآخر قد «تبدو لنا جزءا من سوء التفاهم الاجتماعي والثقافي، كأنها خاضعة لنوع معقد من الإكراهات الفكرية المختلطة بالمشاعر، فلا يتم الانتباه إلى ما يسمح بالاختلاف (الآخر مقابل الأنا) أو التماثل (الآخر يشبه الأنا)، فكثيرا ما يكون عن الآخر نفيا له، إذ تدرس وفق أفكار مسبقة، وتصبح تعبيراً عن الذات وعن العالم الذي يحيط بنا، بعد أن وضعناه في قوالب جاهزة، زرعناها التربة والثقافة السائدة، وبذلك يقوم بنفي الصورة الحقيقية، فنخضعها إلى أوهام تورث رؤية متعصبة، دون أن يكون لها مصداقية على أرض الواقع»⁴. فالصورة تحمل في طياتها

العديد من الأفكار التي تشغل بطريقة ضمنية، وبالتالي تؤثر على تفكير الآخرين وتجعلهم خاضعين لسيطرتها وهيمنتها.

فالصورولوجيا «هي التعبير الأدبي أو غيره عن فجوة كبيرة بين نظامي الواقع الثقافي. وهكذا فالصورة الأدبية هي مجموع الأفكار والمشاعر حيال الأجنبي، التي تتخذ في خضم التكوينين الأدبي والاجتماعي»⁵. حيث تبلور الصورة في مخيلة أفراد المجتمع حول المجتمعات الأخرى إذ تسعى الذات إلى إثبات تفوقها في مختلف المجالات وتصبح معيارا يستند إليه في الحكم على ثقافة الشعوب الأخرى، وبالتالي فهي في المركز عكس الآخر الذي هو في الهامش وما عليه سوى الخضوع لأوامرها والسير على نهجها.

فدراسة صورة شعب عند شعب آخر هو تمثيل له، هذا التمثيل ثقافي وليس حقيقي، فالأدب المقارن يدرس الصورة الخيالية لدى الشعوب الأخرى، وبالتالي: «هي تمثيل بصري بموضوع ما، وتعتبر المعارضة بين الصورة والمفهوم عند باشلار، أساسية لأنها تسمح بفهم تنظيم الانعكاس، عبر وجهين، فالصورة إنتاج للخيال المحض، وهي بذلك تدع اللغة وتعارض المجاز، الذي لا يخرج اللغة عن دورها الاستعمالي»⁶. فالصورة عبارة عن تمثيل الفرد أو الجماعة للواقع الثقافي الأجنبي، وإنتاجها قد يكون جماعيا من خلال الأحداث التي تجمع بين ثقافتين هذا يعني: أننا كلنا نحمل صورة عن الآخرين، فمثلا الفرنسيون ليس لهم صورة إيجابية عن الألمان حتى الأوروبيين أساسهم التمثيل، و«رغم استفادة فرنسا من كتابات مادام دوستايل "عن ألمانيا" فإنها كانت تلاحق في نفس الآن صدى ونجاح كتابها في إنجلترا وأوروبا، ومهتمة باستلهامات رومانيتها للشرق الميثي بكل جغرافيته المختزلة في الألوان والمشارب، لقد كانت سيطرة رحلات الكتاب الفرنسيين، وأعمال المستشرقين، مسيطرة على الخيال الفرنسي»⁷. فمثلا نحن نملك صورة عن الفرنسيين وذلك من خلال تجارب عشناها معهم من خلال الاستعمار، وفي بعض الأحيان عندما نقرأ كتابا عن ثقافة ما تتولد لدينا صورة حولهم.

2.2 مجالات علم الصورة

انطلاقا من دراسة صورة الأنا تتضح صورة الآخر، فعلم الصورة يشمل مجالات كثيرة ومتعددة إذ نجد في الاقتصاد كما نجد في السياسة أيضا، فمثلا الولايات المتحدة الأمريكية تريد أن تقيم حوارا لديهم في الحكومة مختصين في دراسة الشرق الأوسط وبالتالي يحملون صورة عنهم، ونجدها في الإعلام أيضا مثل صورة اليهود في وسائل الإعلام العربية توجد صورة لكن المدونة هي الأفلام، والأشرطة، والملصقات الإشهارية، وفي الأدب المدونة

التي نرجع إليها هي النصّ الأدبي، وعليه فإنّ علم الصّورة علم غير تخصصي، والهدف منه تحصيل رصيد كبير على ثقافة الكاتب الرئيسة تكشف عن مخيال الكاتب، كما تسهم في تعديل دلالة الواقع، وتساعد في كتابة تاريخ الذهنيات.

فالصورة عبارة عن تراكمات تاريخية وفي بعض الأحيان قد يبني الإنسان صورة بسيطة عن شعب بأكمله يسمح بالتعرف على آلية اشتغال الإيديولوجيا في الأدب المصور، فدراسة الصّورة في حد ذاتها مهمة في فهم العمل الأدبي ككل.

2. 3 النصّ الصّوري

هو كل نص يحمل صورة عن الآخر ليس شرطاً أن يكون النصّ وصفاً لنص آخر، فمثلاً *la chanson de roland* هي أنشودة تعلّم الأطفال الصغار في المدرسة. بمعنى أنّ المسلمين في الأندلس يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم ولا يؤمنون بالله، وإن آمنوا فهم يخادعون، إذا الأروبيون منذ صغرهم يحملون عنا هذه النظرة، فصورتنا عند الآخر ليست جديدة بل هي متواجدة منذ القدم، وتجدر الإشارة إلى أنّ النصّ الصّوري ليس دائماً تشويهاً للآخر مثلاً كاتب يكتب رواية عن ثقافة معينة تقلّم رائع، فنقول أنه مهوس بالآخر في مقابلها نجد الخوف من الآخر باعتباره يشكل خطراً على حياة الأنا.

ويرى ستيفن أولمان أنّ « قدرة الصورة في الرواية على تكثيف إيحاءات التصادي بين الضلال والدلالات والرموز في مقاطعها المتواترة، هو ما يجعل بلاغتها سردية وجوهرية أي أنها تعتمد على وظائف التكوين في بنية الشخصيات والمشاهد والفضاءات ومقاطع الوصف والسرد، ومن ثم فهي تجاوز نطاق الجملة أو اللفظة المفردة وإن كانت تونغ منها أحياناً تشكيلات الصور المتراكبة»⁸. فعند قراءة الرواية قراءة سطحية لا تنكشف لنا صورة الآخر لذلك يجب قراءتها قراءة نقدية واعية من خلال الوقوف على أفكارها وما تحمله من دلالات تعكس عمق تجربة الكاتب الروائية وقدرته على تصوير الأحداث ومنحها دلالات تتعدّد بتعدّد القراء وتوجهاتهم الفكرية.

تتسم الصورة بعدم الثبات، وبالتالي فهي: «ليست جامدة، بل تتبع تطور الأسس الاجتماعية لعلاقة الشعوب ببعضها والتفاعل فيما بينها، فكل صورة تنتج فيها ما يساعد مصالح اجتماعية معينة للمجتمعات السياسية التي استنبطت هذه الصورة من أجلها»⁹. تحمل الصورة في طياتها أغراضاً سياسية بالأساس فكل دولة

تستعملها قصد التقليل من شأن الدول الأخرى وجعلها في الهامش، وكما يقال: إذا أردت أن تستعبد شعبا استعمل السياسة، وهناك من يرى أنّ دراسة صورة الآخر «تشكل مصدرا أساسيا من مصادر سوء التفاهم بين الأمم والدول والثقافات سواء كان هذا إيجابا أم سلبا، ونعني بسوء الفهم السلبي ذلك النوع النابع عن الصورة العدائية التي يقدمها أدب قومي ما عن شعب آخر أو شعوب أخرى»¹⁰. فأحيانا نتخذ صورة سلبية حول دولة ما وإذا ما قمنا بزيارتها تتضح لنا الصورة الحقيقية لها، فندرك أن تلك الصورة مجرد تمثيل خيالي لا أساس له من الصحة.

3. ثنائية الأنا والآخر

3.1 مفهوم الأنا:

بإدراك العديد من الباحثين إلى وضع تعريف للأنا من بينهم مراد وهبة صاحب المعجم الفلسفي موضحا معناه قائلا: «هو الذات التي ترد إليها أفعال الشعور جميعها وجدائية كانت أو عقلية أو إرادية وهو دائما واحد ومطابق لنفسه وليس من اليسير فصله عن أعراضه ويقابل الآخر والعالم الخارجي ويحاول فرض نفسه على الآخرين وهو أساس الحساب والمسؤولية»¹¹. فمن خلال الصراع القائم بين الشعوب والحضارات والثقافات المتعددة ظهر صراع بين الأنا والآخر، حيث «تؤدي العلاقات العدائية بين الشعوب إلى تكوين صورة سلبية عن الآخر نظرا للمشاعر العدائية وسوء الفهم»¹². فمن بين الأسباب التي أسهمت في رسم صورة سلبية عن الآخر نجد الاستعمار حيث يقوم هذا الأخير بتشويه صورة الشعوب المستعمرة، وذلك نتيجة المشاعر العدائية بين الشعبين المستعمر والمستعمّر، إضافة إلى سوء الفهم فيقوم كل من المستعمر والمستعمّر برسم صورة سلبية عن الآخر. وبالتالي تصبح الأنا تقلل من قيمته وهكذا يصبح الواقع الثقافي للأنا أعلى مرتبة من الآخر، وعليه فإنّ: «فكرة الآخر هي فكرة ثقافية، يصعب تحديدها ما إذا كانت سببا أم نتيجة لفعل سياسي وعسكري، ولكن الفكر الاستعماري يجعل الفعل السياسي والعسكري نتيجة وليس سببا بيد أنها نتيجة مؤهلة لأن تصبح سببا لحركة أخرى في لحظة أخرى»¹³. يعتبر الاستعمار سببا وجيها في ظهور مسألة الآخر، حيث أقامت الدول المستعمرة حدودا بينها وبين الدول المستعمرة ومن هنا تباينت الفروقات بينهما، ورغم تلك الاختلافات إلا أن هناك تفاعلات بينها «لقد أتاحت التفاعلات بين الأنا والآخر على المستوى الأوروبي فرصة للأوروبيين لإعادة اكتشاف أنفسهم... حتى ألفينا القاهر يعلم المقهور عن نفسه ليتطور ذلك بدوره فنجد المقهورين قد احتفظوا بصور قاهريهم وصاروا أسرى لها»¹⁴. فالتفاعل بين الأنا والآخر أعان الأوروبيين

في فهم أنفسهم. كما أن الأنا اعتبرت الآخر جنسا لا يعرف شيئا، وقد حملت على عاتقها تعليمه وتثقيفه إلى درجة أن الآخرين قد بقوا متمسكين بما تعلموه من الأنا وصاروا يسرون وفق الصورة التي رسمتها حولهم .

2.3 تعريف الآخر

إذا ما ذهبنا إلى تعريف الآخر فإننا نجد أنه يحمل « معنى الغير المختلف الذي تقتزن معرفته بمعرفة الأنا فكلما ازدادت معرفتنا بالغير كلما اتسعت دائرة إدراكنا»¹⁵ فحتى تتمكن من معرفة الآخر لابد من وجود الأنا، فمعرفة الأنا يتضح لنا مفهوم الآخر الذي هو غير مختلف عنها، وكلما تعرفنا على الآخر وحددنا أبعاده المختلفة كلما مكنتنا ذلك من حصر دائرة الأنا، والتعرف عليها أكثر، فمعرفة الآخر تسهم في معرفة الذات والعكس صحيح.

من هنا فـ « الآخرون هم فرد أو جماعة لا يمكن تحديدهم إلا في ضوء مرجع هو (الأنا) فإذا حددنا هوية الأنا كان الآخر فردا أو جماعة يحكم علاقته/علاقتهم بالأنا عامل التمايز، هو تمايز إطاره الهوية أحيانا والإجراء في أحيان أخرى »¹⁶. فالآخر قد يكون فردا أو جماعة ولا يتضح مفهومه إلا في ضوء وجود الأنا، فالعلاقة التي تربط الأنا بالآخر قائمة في أساسها على التمايز إما على مستوى الهوية أو اللغة، أو العرق، أو الدين ... إضافة إلى هذا فإننا نجد الآخر «بالمقارنة مع ذات الشخص أو المجموعة أستطيع(أو نستطيع) تحديد اختلافي (أو اختلافنا) عنها وفي مثل هذه الضدية ينطوي هذا التحديد على التقليل من قيمة الآخر وإعلاء من قيمة الذات أو الهوية ويشيع مثل هذا الطرح بتقابل الثقافات الخاصة، وهذا ما يسود في الخطاب الاستعماري»¹⁷. يكشف هذا القول: عن التنافر بين الأنا والآخر، فما تحمله الأنا من صفات لا نجددها عند الآخر، هذا ما يجعلها متميزة عنه، فهي مرتبطة بالحضارة والرقى وتنظر إلى الآخر على أنه متخلف، بدائي وهمجي، فكل الخطابات الاستعمارية تحاول ترسيخ فكرة تمايز الأنا عن الآخر، فالمستعمر (الأنا) دائما يحتقر المستعمر(الآخر) وينظر إليه نظرة دونية، وبالتالي تصح الأنا هي الأصل وهي المركز والآخر تابع لها «فبمجرد قول عبارة صورة الآخر يتبادر مباشرة إلى الأذهان مفهوم الذات والأنا»¹⁸. وهكذا فإن ثنائية الأنا والآخر لا يمكن فصلهما عن بعضهما فبمجرد أن نسمع كلمة الأنا يتبادر في أذهاننا مفهوم الآخر رغم وجود اختلاف بينهما سواء في الشروط التي تحكمها أو في المفهوم أو الصورة التي تحملها الأنا حول الآخر والعكس.

4 تمثيلات الآخر في رواية "يوم غائم في البر الغربي"

1.4 صورة الآخر في رواية "يوم غائم في البر الغربي"

يحمل عنوان هذه الرواية في طياته صورة حول فضاء الآخر الذي يبدو كغريب، فالأنا الشرقية تواجه العديد من الصعوبات والتحديات في بلد الآخر إذ تجد نفسها مجبرة على اتباعه في سلوكاته وتصرفاته ونمط معيشته، لتجد نفسها تعيش في كنف العبودية التي تجعلها تشعر بالذل والهوان، وهذا ما تجسد في شخصية عائشة التي ورد ذكرها في الرواية، حيث جاء في أحد المقاطع: «نظرت الراهبة الصغيرة إلى عائشة في وقتها الذليلة المنكسرة، لم تكن تعلم أن الأم قد أضنتها جوعا وسيرا حتى تبدو على هذه الهيئة، تقدمت الراهبة الصغيرة من الأم الرئيسة، تحدثت معها بلغة غير مفهومة، نظرت إليها الأم في استنكار، خفضت وجهها في خجل بالغ وعادت إلى ركن الغرفة، ولكن الأم أحست أن شيئا ما قد تغير، تهتدت الرئيسة وأشارت إلى عائشة وهي تقول: ما اسمها؟ قالت الأم في سرعة أطلقي عليها أي اسم، لم يعد اسمها القديم لائقا»¹⁹. فعائشة كانت ملزمة بتعلم لغة الأنا الإنجليزية فهم ينظرون إليها على أنها لا تحمل اسما ولا هوية، كما يوضح هذا القول أن هناك عدة عوامل تعيق تعايش الأنا والآخر من بينها: الثقافة، واللغة، والعرق، لأن الآخر ثقافته لا تؤهله لأن يعيش مع الأنا، فهو متخلف في جميع المجالات حتى اللغة لا يحسن نطقها، بل لا يملكها هذا ما يجعله غير قادر على التواصل مع غيره فلغته مبهمه وغير واضحة، وبالتالي أصبحت الأنا تحقره وتقلل من شأنه لأنها تملك لغة راقية وذلك بفضل الحضارة التي تنتمي إليها .

تضمنت هذه الرواية العديد من الصور التي تحاول التقليل من شأن الآخر، فمثلا عندما رفضت الأم الرئيسة استقبال عائشة وأنها حتى لا تكون هناك فتنة بينهم وبين المسلمين أخبرتها الأم بأتهما هاربتان من بلدهما الذي لا يولي لهما أهمية وهذا ما يجسده القول الآتي: «ألا يوجد معكما أي أوراق؟ في نجعنا النائي لا توجد أي أوراق، نحن نولد ونموت دون أن يعلم أحد بوجودنا نظرت الرئيسة في حولها في حيرة: أليس معكما أي حقائب أو ملابس؟ نحن هاربتان يا سيدتي، لم نستطع أن نحمل أي شيء حتى نلقت الأناظر إلينا»²⁰. فالآخر في هذه الرواية مهمشا ومقموعا، بلا هوية، ويجسد لنا هذا القول أن الآخر لا يحمل اسما، هذا ما يجعله غير معروف سواء تعلق الأمر في مجتمعه أو في المجتمعات الأخرى، فحياته وموته أمر واحد. فالأنا تنفي كل وجود للآخر، فالأم أخذت عائشة إلى ذلك المكان خوفا من أن يلحق بها "عمران" أي أذى، فعائشة «كانت تدرك أن أمها على حق، ولكنها قالت في ضعف وخوار: لكني تركت ديني وغيّرت اسمي

؟ أنت الشخص نفسه مهما تغيرت الأسماء، أما الدين فهو القلب يا بنتي، مهما كان المكان الذي أنت فيه فسوف تعبدين نفس الإله»²¹. فتلك التحولات التي طرأت على اسم عائشة ودينها كانت شكلية فقط فهي لم تتخل عن عقيدتها، وكانت تصلي في الخفاء.

فالآخر يشعر بالضياع في بلد الأنا، حيث جاء في أحد المقاطع: «ظلت عائشة واقفة ساهمة أمام خزانة ملابسها، لم يكن هناك ما تحمله، ولا مكان تقصده، كانت أكثرهن إحساسا بالضياع، لا بيت ولا أهل ولا اسم حقيقي، كانت قد أحكمت كذبتها جيدا، ولكن أفعال النهر توشك أن تكشفها، رأت الدموع وهي تظفر من عيني مرجريت فجلست بجانبها على الفراش، ابتسمت مرجريت في شحوب، همست في عائشة: لا أريد أن أغادر هذا المكان، لأنني أعرف أنه سوف يأتي: من؟ مسيحي.. المخلص..»²² فالآخر لا يملك أدبي المعلومات، فهو خال الذهن حيث تقوم الأنا بتعليمه باعتبارها تملك العلوم والمعارف، لأنها تنتسب إلى الحضارة الإنجليزية الراقية، كما أنه يستفيد من ثقافة الأنا ويأخذ بتعليماتها، ومن الأشياء الأساسية التي علمتها الأنا له نجد اللغة والدين باعتبار أنّ الآخرين لا دين لهم.

وجاء في موضع آخر: «لم يكن يوجد أحد غيري في البر الغربي»²³. فعائشة كانت تشعر بالوحدة في بلد لا تنتمي إليه، رغم وجود العديد من الأصدقاء الذين كانت تقضي معهم جل أوقاتها، فالأنا دائما تحافظ على مكائنها، وذلك من خلال استعبادها للآخرين فلا يكون الحكم لغيرها لأنها صاحبة السيادة فهي تصلح لخدمة جميع مجالات الحياة، كما أن حصولها على السلطة يكون باختيار الآخرين وما عليهم إلا الإخلاص لها والخضوع لسلطتها، يوضح هذا القول: أنّ فكرة المركزية الغربية غابرة في الزمن وليست وليدة اللحظة وبالتالي فهي امتداد لتاريخ أوروبا الحافل بالنجاحات، فهي تتجسد في جميع المجالات، كما أنّ الأعمال الإبداعية التي تخرج عن قواعدها لا تدرج ضمن الأعمال الأدبية.

وحتى يتمكن الآخر من العيش في بلاد الأنا ما عليه سوى الانصياع لأوامرها، والأمر نفسه حدث مع عائشة، حيث ورد على لسانها: «لقد فعلت للإنجليز كل ما في وسعي، رددت كلماتهم، وبررت أفعالهم، كل هذا من أجل أن أحظى بالاهتمام وأنا أتقدم بهذا الطلب الوحيد، كل هذا ضاع عبثا»²⁴. فبعد أن التزمت عائشة بكل تعليمات الإنجليز وفي النهاية انهزمت معهم، شأنها شأن محمود سامي البارودي إذ انضم لهم واتبع تعليماتهم وفي نهاية المطاف انهزم، وهذا تصريح مباشر من الأنا، فهي لا تستطيع العيش مع الآخر لأنه يعرقل

أعمالها و يشبط قدراتها. فالأنا تكون أكثر إنتاجا في بلدها لأنها تجد ما يؤهلها لفعل ذلك عكس بلاد الآخر الذي تتلقى فيه العديد من الصعوبات وذلك بسبب التخلف الذي يسوده.

ففضاء الأنا غريب وموحش حيث كانت تشعر عائشة أنها «غريبة في عالم غريب»²⁵. فالأنا تحاول أن تأخذ منحى إيجابيا وتساعد الآخرين، فهي تتجنب هذه التصرفات كما أنّ الأنا تشعر بالغرابة في بلاد الآخر، «إنها قبائل بدائية يا مولاي لا يسمو تفكيرها إلى هذا الحد، ولن يوقفها عن رغبتها المتعطشة للقتل والسلب، لقد أرسل حليفنا على أرض كنعان رسالة يحذرنا من هجومها على حاميتها، وعندما يصل الأعداء إلى هناك فهذا يعني أننا يجب أن نحارب على بوابات مصر، حتى آلهة السلام يا مولاي تحتاج إلى القوة»²⁶. وجاء في موضع آخر: «إنهم كالجراد يا مولاي، عندما يقبلون على وادينا، لن يبقوا على معبد ولا قرية ولا مدينة، ستتحول الأرض الخضراء إلى خراب، وسيملئ النهر بالدماء، إنهم لا يؤمنون إلا بقوة النار، ولا يخلفون إلا رماد الحرائق، علينا أن نذهب إليهم قبل أن يهبطوا علينا ونخوض ضدّهم المعركة الأخيرة»²⁷. فالآخر يشكل خطرا على الأنا، فعلى الرغم من الصعوبات التي تتلقاها هذه الأخيرة من بلاد الآخر إلا أنها ستقع حتما في يد المتوحشين الذين لا يحسنون التصرف مع غيرهم أو حتى مع أنفسهم. لذلك تعتبر الأنا المكان الذي يعيش فيه الآخر مخيفا ومرعبا لأن أصحابه متوحشون.

لقد حفلت هذه الرواية بنسق العبودية، فالآخر يخضع لسلطة الأنا ولا يخرج عن حدود أوامرها وقواعدها عكس الأنا التي لا يمكن استعبادها فشخصيتها كاملة لا ترضى بهذه الفكرة «ولكن الذي أثار دهشته حقا هو كل هذا العدد من العبيد الذين يسيرون بزهو وهم يستعرضون جلودهم السوداء المدهونة بالزيت، وهم يسحبون في أيديهم نسوة من مختلف الألوان»²⁸. فمن المعايير التي يختار العبد على أساسها نجد: القوة هذا ما كان يتسم به الآخرون إلا أن الأنا لم تخلق لهذا، لأن صفة العبودية خاصة بالآخر فثقافته لا تؤهله لأن يكون حرا، وجاء في موضع آخر «كنت مجرد عبد، جسدا بلا حياة ولا روح، مات سيدي وكان يجب أن أدفن معه، حتى أقوم بخدمته في العالم الآخر، ولكنه كان سيدا قاسيا، تحملت خدمته في هذا العالم على مضض فما بالك الأبدية»²⁹. فالآخر حتى وإن امتلك هوية إلا أنه يبقى مستعبدا وسادجا، لأنه لو تأثر بالحضارة الإنجليزية لا يعرف كيفية مواكبتها عكس الأنا التي تتميز بالذكاء والفتنة، فالفضاء الذي يعيش فيه الآخر يعدّ موردا اقتصاديا بالدرجة الأولى تستفيد منه الأنا في جميع الجوانب، فجعل الأفراد بضاعة يُسهم في

تطور الإنتاج الاقتصادي التابع للأنا، فالأنا دائما تحافظ على مكانتها، وذلك من خلال استعبادها للآخرين فلا يكون الحكم لغيرها لأنها صاحبة السيادة فهي تصلح لخدمة جميع مجالات الحياة كما أن حصولها على السلطة يكون باختيار الآخرين وما عليهم إلا الإخلاص لها والخضوع لسلطتها، كما يوضح هذا القول أنّ فكرة المركزية الغربية غابرة في الزمن وليست وليدة اللحظة وإنما هي امتداد لتاريخ أوروبا الحافل بالنجاحات فهي تتجسد في جميع المجالات كما أن الأعمال الإبداعية التي تخرج عن قواعدها لا تدرج ضمن الأعمال الأدبية.

كما تجسد هذه الرواية صورة الآخر البربري إذ جاء في أحد المقاطع: « تمتم حور محب من بين أسنانه: هذا لن يحدث أبدا، لن أهزم البرابرة في الشمال وأدعهم يهزمونني في طيبة»³⁰. فالآخر بعرف بأنه بربري وهمجي يفتقر لأدنى شروط الحضارة فتصرفاته وسلوكاته تعكسه همجيته، كما يعرفون بأنهم من آكلي لحوم البشر، عكس الأنا التي تشهد تطورا وتقدما في مختلف المجالات.

خاتمة:

وفي الأخير تجدر الإشارة إلى أنّ رواية "يوم غائم في البر الغربي" جسدت حالة التيه التي يعانيها أي شخص في بلاد الآخر، فهي تعكس لنا الحضارة الإنجليزية الراقية، مقابل التحلف الذي نجده في بقية الحضارات، أو في الثقافة الشرقية، هذا ما نتج عنه ثنائية الأنا والآخر، كما نجد أنّ هذه الرواية تحمل الكثير من الأنساق التي تمارس تأثيراتها السلبية على الأفراد، فالآخر في هذه الرواية يقوم بممارسة العديد من العادات التي تعكس لنا تفكيرهم الميتافيزيقي، عكس الأنا التي تتميز بالتفكير العلمي، هذا ما جعلها تنظر إليه على أساس أنّه بدائي وبربري، ولا يحمل أبسط الأفكار التي تدفعه إلى الرقي والتطور.

كما أنّ فضاء الآخر يحمل نفس الصفات التي يتسم بها أفرادها فهو موحش وكئيب، فالإنجليزي يقوم بامتلاك كل ما صادفه في بلاد الآخر، وهذا دليل على أن فضاء الآخر سهل الاستعمار والتملك، وهذا ما يبين لنا ضعف الآخر وعدم قدرته على تسيير شؤونه.

الهوامش:

- 1- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار الثقافة، ص419.
- 2- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010، ص12.
- 3- محمد بوزواوي، معجم مصطلحات الأدب، الدار الوطنية للكتاب، الجزائر، 2009، ص185.
- 4- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، ص13.
- 5- دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1997، ص84.
- 6- سعيد علوش، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، دار الكتب اللبنانية، شوسيريس، الدار البيضاء، ط1، 1985، ص136.
- 7- سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن؛ دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987، ص58.
- 8- رابع ملوك، ريشة الشاعر بحث في بنية الصورة الشعرية وأماطها عند الماغوط، دار ميم للنشر، 2008، ص27.
- 9- عقيف عثمان، الغرب بعيون إسلامية، محمد حسين فضل الله راثيا، باحثات، الكتاب الخامس، لبنان، 1998-1999، ص209.
- 10- عبده عبود، الأدب المقارن (مدخل نظري ودراسات تطبيقية)، منشورات جامعة البعث، حمص، 1992/1991، ص371.
- 11- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، 2007، ص95.
- 12- ماجدة حمود، مقارنات تطبيقية في الأدب المقارن، ص107.
- 13- مصلح النجار، الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية، وقائع المؤتمر الثالث للبحث العلمي في الأردن . 2007/11/17، الجمعية الأردنية للبحث العلمي والدار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 2008، ص53.
- 14- المرجع نفسه، ص57.
- 15- المعجم الفلسفي، مجمع اللغة العربية، مصر، عالم الكتب، بيروت، لبنان، 1979، ص132.
- 16- مصلح النجار، الدراسات الثقافية ودراسات ما بعد الكولونيالية، ص51.
- 17- ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002، ص23.
- 18- عدلي الهواري، عود الند، المجلة الثقافية الشهيرة 4212، العدد96، ص87.
- 19- أحمد المنسي قنديل، يوم غائم في البر الغربي، دار الشروق، مصر، ط3، 2009، ص31.
- 20- المصدر نفسه، ص31.
- 21- المصدر نفسه، ص37.
- 22- المصدر نفسه، ص52.
- 23- المصدر نفسه، ص164.
- 24- المصدر نفسه، ص185.
- 25- أحمد المنسي قنديل، يوم غائم في البر الغربي، ص407.
- 26- المصدر نفسه، ص426.427.

- 27- المصدر نفسه، ص327.
 28- المصدر نفسه، ص435.
 29- المصدر نفسه، ص458.
 30- المصدر نفسه، ص565.

قائمة المصادر و المراجع:

أ/ المصادر:

1-أ حمد المنسي قنديل، يوم غائم في البر الغربي، دار الشروق، مصر، ط3، 2009.

ب/ المراجع:

- 1- عبده عبود، الأدب المقارن (مدخل نظري ودراسات تطبيقية)، منشورات جامعة البعث، حمص، سوريا، (د.ط)، 1991/1992.
 2- عدلي الهواري، عود الند ، المجلة الثقافية الشهيرة 4212، العدد96.
 3- عفيف عثمان، الغرب يعيون إسلامية، محمد حسين فضل الله راثيا، باحثات، الكتاب الخامس، لبنان، (د.ط)، 1998-1999.
 4-دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، ترجمة غسان السيد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (د.ط)، 1997.
 5- رابع ملوك، ريشة الشاعر بحث في بنية الصورة الشعرية وأماطها عند الماغوط، دار ميم للنشر، (د.ط)، 2008.
 6- سعيد علوش، مدارس الأدب المقارن؛ دراسة منهجية، المركز الثقافي العربي، ط1، 1987.
 7- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار الثقافة، (د.ت)، (د.ط).
 8- ماجدة حمود، صورة الآخر في التراث العربي، الدار العربية للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، 2010.
 9- محمد بوزواوي، معجم مصطلحات الأدب، الدار الوطنية للكتاب، الجزائر، (د.ط)، 2007.
 10- ماجدة حمود ، مقاربات تطبيقية في الأدب المقارن، (د.ت)، (د.ط).
 11- مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار قباء الحديثة، (د.ط)، 2007.
 12- مصلح النجار، الدراسات الثقافية ودراسات مابعد الكولونبالية، وقائع المؤتمر الثالث للبحث العلمي في الأردن، 17/2007/11، الجمعية الأردنية للبحث العلمي والدار الأهلية للنشر والتوزيع، ط1، 2008.
 13- ميجان الروبلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2002.